

تفسير سورة الطور

وهي مكة

عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا - أو: قراءة - منه. أخرجاه (١) ، وروى البخارى عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى اشتكى، فقال: « طوفى من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴾ ﴿ وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ﴾ ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ﴿ وَالسَّمَاءِ الْمَرْفُوعِ ﴾ ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْ قَع ﴾ ﴿ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا يَوْمَ يَلْعَبُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تُكذَّبُونَ ﴾ ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرمل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل. «وكتاب مسطور» قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: «في رقي منشور» «والبيت المعمور» ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء - بعد مجاورته إلى السماء السابعة : « ثم رفع بى إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» (٣) يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكمبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمده الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والريبع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقوله: «والسقف المرفوع» قال سفيان الثورى، وشعبة، وأبو الاحوص، عن سمك، عن خالد ابن عرزة ، عن على: «والسقف المرفوع» يعنى: السماء، قال سفيان: ثم تلا: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ» [الانبيا: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جرير، وابن

(١) البخارى (٤٨٥٤) ومسلم (١٧٤/٤٦٣) . وسينى عند الآية (٣٦) من هذه السورة مطولا .

(٢) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢) .

(٣) البخارى (٤٨٥٣) .

زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعنى: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذى تحت العرش، الذى ينزل الله منه المطر الذى يحيى به الأجساد فى قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف فى معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورِ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوقد يوم القيامة ناراً كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجُوتٌ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضمرت فتصير ناراً تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن على بن أبى طالب، وروى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وقال العلاء بن بلدر: إنما سُمى البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ يعنى: المرسل. وقال قتادة: ﴿الْمَسْجُورِ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقداً اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستقى فرجعت فقالت: إن الحوض مسجور، تعنى: فارغاً. وقيل: المراد بالمسجور: المنوع المكفوف عن الأرض؛ لئلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره.

وقوله: ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: لواقع بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن» عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ. مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾، فربا لها روبة، أعيد منها عشرين يوماً (١).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكاً. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دوراً. وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها فى بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثاً، وتنفس نسفاً، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابه لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حُوزِهِ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ﴾ أى: يدفعون ويساقون، ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ وقال مجاهد، والشعبي، والسدى، وغيرهم: يدفعون فيها دفعا ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ﴾ أى: تقول لهم الزانية ذلك تقريباً وتوبيخاً، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا﴾ أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿وَإِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحداً، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْسٍ﴾ فَكِهِينَ بِمَا أَنَّهُمْ رِيحٌ وَوَقَّهَتْ رِيحَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿كُلُوا﴾ وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحَتْهُمُ بِحُورٍ عِينٍ﴾
أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْسٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من

العذاب والنكال، ﴿فَلَا يَكْفِيهِمْ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكحون بما آتاهم الله من النعيم، من اصناف الملاذ، من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ومراكب وغير ذلك، ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حداثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التى فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقولہ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَمْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السرر فى الجبال. ومعنى «مصفوفة» أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. ﴿وَوُجُوهُهُمْ يُحَوَّرُ عَيْنٌ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسنا من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَوُجُوهُهُمْ﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا خَرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا لَمَّا وَرَدُوا لِقَاءَ اللَّهِ فِي كُلِّ نَبْوَةٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ نَسُوا مَا وَعُودُوا بِهِمْ فَلَا تَأْتِيهِمْ فِيهِمْ نُورٌ وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴿١١﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفَانُ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤُا مَكْنُونٌ ﴿١٢﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُتَصِفِينَ ﴿١٤﴾ فَمَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ﴿١٥﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾

ربع

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه وخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعهم ذرياتهم فى الإيمان يلحقهم بأبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقر أعين الآباء بالابناء عندهم فى منازلهم، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله، للتساوى بينه وبين ذلك؛ ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ (١) وَمَا أَتَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وهكذا يقول الشعبي، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم، وقناة. وهو اختيار ابن جرير. وقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن على قال: سألت خديجة النبی ﷺ عن ولدين ماتا لها فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما فى النار». فلما رأى الكراهة فى وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لا بغضتهما». قالت: يا رسول الله، فولدى منك. قال: «فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم فى الجنة، وإن المشركين وأولادهم فى النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية (٢).

هذا فضله تعالى على الابناء بركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الابناء، فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة

(١) «ذرياتهم» بالجمع: قراءة ثابتة أيضا. وانظر تخريج القراءتين فى تعليق الشيخ شاکر على الحديث رقم (١١٣١) من المسند.

(٢) المسند (١١٣١) وقال الشيخ شاکر: «إسناده حسن» والحديث من زيادات عبد الله ابن الإمام أحمد. وانظر تخريجه مفصلا هناك، وكذا توجيه القراءتين «ذرياتهم» و«ذريتهم». وقد أشار أيضا إلى ذلك عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام.

فيقول: يا رب، أنى لى هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» (١). إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (٢).

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ﴾: لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤخذ أحداً بذنب أحد، بل ﴿كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ﴾ أى: مرتبه بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أباً أو ابناً، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةً. إِلَّا أَصْحَابَ اليمينِ. فِي جنَاتٍ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤١].
وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى.

وقوله: ﴿يَتَنَزَّعُونَ لَهَا كأساً﴾ أى: يتعاطون فيها كأساً، أى: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿لَا تَلْفُوهَا وَلَا تَأْتُمُوهَا﴾ أى: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أى: هذيان، ولا إثم، أى: فحش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأثم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان. فتره الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها - كما تقدم - صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بِهَضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ. لَا لَهَا غَوْلٌ وَلَا هَمٌّ عَنْهَا يَنْزِفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يَصُدُّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كأساً لَا تَلْفُوهَا وَلَا تَأْتُمُوهَا﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لؤلؤٌ مكنونٌ﴾: إخبار عن خدمهم وحشمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حسنهم وبهاتهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ. بِأَكْوَابٍ وَأَبَاريقٍ وَكأسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]. وقوله: ﴿وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ البرُّ الرَّحيمُ﴾.

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ. رَبِّ السَّمَوَاتِ﴾
﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الَّامْتَرَبِّصِينَ﴾ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلَهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى

(١) المسند (٥٠٩/٢) وابن ماجه (٣٦٦) وفى الزوائد : «إسناده صحيح رجاله ثقات» .

(٢) مسلم (١٤/١٦٣١) .

إنكار عليهم في شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له. ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك، ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمَسْطُورُونَ﴾ أى: أهم يتصرفون في الملك ويديهم مفاتيح الخزائن؟ ﴿أَمْ هُمُ الْمَسْطُورُونَ﴾ المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك، بل الله، عز وجل، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ بَسْمِعُونَ فِيهِ؟﴾ أى: مرقاة إلى الملا الأعلى ﴿فَلْيَايَاتٍ مُّسْتَمِعُهُمْ بَسَلْفَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: فليآيات الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى: ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل.

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم. هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله، وعبودهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ؟﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا؟﴾ أى: أجره على إبلاغك إيهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئا، ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أى: فهم من أدنى شيء يترمون منه، ويثقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ؟﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والانداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ ﴿فَذَرَّهُمْ حَتَّى يَلْقَئُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أى: متراكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَنْهَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ﴾ أى: دعهم - يا محمد - ﴿حَتَّى يَلْقَئُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ولا مكروهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يجدى عنهم يوم القيامة شيئا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: تعذبهم فى الدنيا، وتبليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينبئون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا ونعت

كلاءتنا، والله يعصمك من الناس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر: أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة (١). ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد وغيره، عن النبى ﷺ أنه كان يقول ذلك (٢). وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أى: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من نمار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لى - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخارى فى صحيحه، وأهل السنن (٣). وقال ابن نجيب، عن مجاهد: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: من كل مجلس. وقال أبو الأحوص: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لفظه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك». رواه الترمذى - وهذا لفظه - والنسائى فى اليوم والليلة، وقال الترمذى: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: إسناد على شرط مسلم (٤). وروى أبو داود عن عبد الله ابن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جبير بن مطعم (٥). ورواه أبو بكر الإسماعيلى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبى ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل، كما قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِه نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَتَخَنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ١٧٩]. وقوله: ﴿وَادْبَارِ النَّجُومِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إديار النجوم، أى: عند جنوحها للغيوبة. وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر (٦). وفى لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» (٧).

(١) مسلم (٥٢/٣٩٩).

(٢) المسند (٥٠/٣) وأبو داود (٧٧٥) والترمذى (٢٤٢) وصححه الألبانى.

(٣) المسند (٣١٣/٥) والبخارى (١١٥٤) وأبو داود (٥٦٠) والترمذى (٣٤١٤).

(٤) الترمذى (٣٤٣٣) والنسائى (١٠٢٣٠) والحاكم (٥٣٦/١).

(٥) أبو داود (٤٨٥٧) والحاكم فى المستدرک (٥٣٧/١).

(٦) مسلم (٩٦/٧٢٥).

(٧) البخارى (١١٦٩) ومسلم (٩٤/٧٢٤).